أطوار الوحدة العربية

ثورة العرب الكبرى

للأســـتاذ نسيب سعيد

قلنا فى حديثنا الماضى إن الطور الثالث « للقضية العربية » يبدأ بإعلان الثورة الكبرى رسميًا يوم ١٠ يونيو عام ١٩١٦ ، ونزول العرب إلى ميادين الصراع والكفاح ، وينتهى بإرسال الحسين بلاغه الشهير إلى الدول يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٨ . فنفصل اليوم ما أجملناه أمس ، ونقول : إن « القضية العربية » كانت فى خلال هذه المرحلة — وقد امتدت عامين ونيفا — عرضة لتيارات مختلفة ، وعوامل متناقضة ، لأنها أعظم الأطوار التى اجتازتها شأناً . وقد ظن بها الكثيرون من كبار السياسيين الظنون ، واعتقدوا أنه قد لا يكتب لها التغلب على المصاعب التى أحدقت بها من كل جانب ، فكان جمال السفاح يهاجمها من الداخل بكل قواه ، ويبذل جهوده للقضاء عليها ، والتخلص منها فيتم بذلك عمله الأصلى ، ويقضى على كل حركة عربية ، فينال إكليل الغار والظفر . ولا ريب أن فشله فى احتلال مكة وفى إنقاذ الحجاز أفقده ما كان يتمتع به من نفوذ فى دوائر الآستانة ، وجعل حكومتها تقلص ظله ، وتنقص سلطته تدريجيًا حتى جردته من كل حول وطول ، فطلب أن يقال ، وكانت الحرب فى عامها الثالث ، فأقيل وعاد حزيناً مغموماً إلى الآستانة ، يمض كفيه شجناً وأسى ، وقبع فى وزارة الحربية هناك ينتظر ما خبأه له القدر ، ولم يطلّ به المقام حتى فرّ إلى روسية فعاش فيها شريداً طريداً ، ومات قتيلاً منبوذاً ، وتلك عقبى الطاغين

ويجب علينا أن نعترف فى هذا المقام أن معظم الفضل فى إنقاذ الثورة ، بل فى إنقاذ القضية العربية فى هذا الدور يعود إلى الجهود الخاصة التى بذلها الحسين وأولاده فى الأشهر الأولى للثورة الكبرى ، ولولا ذلك لتم لفخرى باشا القائد التركى العام بلوغ مكة ، واحتلالها ، والقضاء على الثورة فى مهدها

وعلى كل حال لا بد لنا قبل الحديث عن حوادث الثورة ووقائعها ، من دراسة مقدمات هذه الثورة وأسبابها وعواملها فقد يساعد هذا الدرس — كما نعتقد — على استخراج نتائج إيجابية تنير السبيل ، وتجلى الحقيقة عن ثورة العرب الجبارة

وإذا أردنا البحث عن أسباب الثورة ومقدماتها ، يجب علينا قبل كل شىء ، استعراض علاقات العرب بالترك منذ اتحدا فى ظل الهلال العثمانى خلال القرون الوسطى ، يوم كان للوازع الدينى المقام الأول ، وكان الشرق يعيش فى عزلة تامة عن الغرب ، ويدور فى دائرة ضيقة من التقاليد والأساليب ، تسلمت إليه من أسلافه الأولين ، وأجداده الأقدمين ؛ فكل من يستعرض هذه العلاقات بين الأمتين المسلمتين ، يسلم بأن العرب لم يجدوا غضاضة فى الخضوع لسلطان العثمانيين حينما فرق يوم مرج دابق جيش السلطان « طومان باى خليفة الغورى » آخر المماليك المصريين ، وتقدم إلى دمشق ، فالقدس ، فالقاهرة فاتحاً ، فقد رحبوا به فى كل بلد من بلدانهم ، وقطر من أقطارهم ، وبلغ من شريف مكة يومئذ وهو الأمير بركات أن أرسل إلى القاهرة من حمل إلى السلطان المنتصر كتاب بيعته ودخوله فى طاعته ، وبهذا الاعتراف اكتسب لقب خادم الحرمين الشريفين . والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة الاجتماعية هو الفكرة الدينية ولا شك ، فقد سرى فى ذهن العرب من أبناء هذه الأقطار أن فى تأييد السلطان الجديد تأييداً للاسلام وإعلاء لشأن الشريعة السمحاء فبايعوه سيداً وإماماً

وهبت على ديار الغرب بعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ريح القومية ، وتنشق العالم نسمات روح جديدة ، حاملة معها حضارة الغرب الحديثة ؛ وكانت بضاعة القومية فى جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق القديم ، فجاءت تجر ثوباً قشيباً فضفاضاً يغرى ويفتن ؛ إلا أن تأثيرها ظل محدوداً خلال القرن الماضى بسبب الجهل الذى كان مسيطراً وسائداً . حتى إذا بدت طلائع القرن الجديد شرع العرب ينتعشون تدريجاً ، ويفتحون عيونهم لاستقبال نور الحياة المشرقة عليهم ، المهيبة بهم إلى النهضة والعمل ، لاحتلال المنزلة اللائقة بهم بين الأمم . بدأت هذه الروح القومية الجديدة تهب عليهم نسمات خفيفة رقيقة ، ثم أخذت تتابع وتقوى بتقدم الأيام والليالى ، حتى كانت الحرب العظمى الماضية فإذا بتلك النسمات الرقيقة قد أصبحت ريحاً صرصراً عاتية ، بل عاصفة هوجاء تتلاعب بالأمة العربية ، وتقذف بها ذات اليمين وذات الشمال .

وما زال العرب اليوم يعيشون فى وسط هذه العاصفة ، وفى ملتقى التيارات المنصبة عليهم من كل صوب وناحية

فإذا نحن تقصينا الأثر البارز للقوى العظيمة المتفاعلة وإياها وجدناه في هذه الهبة القومية التي تدفعهم إلى استكشاف نفسهم، وتحرير أفرادهم ومجموعهم، واستعادة سالف مجدهم، وإثبات مكانتهم في المجتمع البشرى. وما من أحد يلمس الحياة العربية الحاضرة إلا ويشعر بهذه الهبة المرتفعة من صدور العرب في شتى أقطارهم، المبشرة بنهضة جديدة، يرجى لها ما كان لسابقتها في العصور الوسطى — من عز منيع، ومجد رفيع، ومساهمة ذات شأن في تقدم التمدن الإنساني، والحضارة العالمية

وكما هبت ريح القومية على العرب، كذلك هبت على الترك حتى إن بعضهم تشبع بفكرة القومية الطورانية، فكان ذلك مقدمة تحول عظيم في صلات الأمتين: العربية والتركية، وقد ختم هذا الدور (٢٣ يوليو عام ١٩٠٨–٣٠ أكتوبر عام ١٩١٨) بانفصالها عن بعض بعد ما عاشا متحدين مدى أربعة قرون، يخضعان لنظام واحد، ولعلم واحد؛ فانهار بذلك الانفصال بناء الأمبراطورية العثمانية، وقام مقامه صرح جمهورية أنقرة الجديدة، كما قامت هذه الدول العربية المنبثة في بلاد العرب من أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال

أما الخلاف العنصرى الذى نشأ بين العرب والترك، فقدمته كانت – ولا شك – قضية إبعاد العرب عن وظائف الدولة؛ وقد بلغ أشده عن طريق الصحافة، إذ كانت الصحف التركية الجديدة تدعو إلى تعزيز القومية الطورانية، والتحامل على القوميات الأخرى، وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها. ولم تقصر صحافتا الترك والعرب في التراشق بالألفاظ والجمل، والغمز واللمز، كما لم يقصر شعراء الأمتين في نظم القصائد والمقطوعات التي تزكي نيران القومية في القلوب.

أضف إلى ذلك عمل الكتاب العرب الذين نزحوا إلى وادى النيل السعيد، فقد أذكوا روح القومية العربية بما كتبوا ونظموا، فكان عملهم أشبه بعمل روسو وفولتير ومنتسكيو وديدرو في إذكاء ثورة فرنسا الكبرى سنة ١٧٨٩

تلك هي إذن مقدمات الثورة العربية وأسبابها البعيدة، أضف إليها عمل الجمعيات العربية بصورة خاصة. أما الأسباب القريبة أو المباشرة لها، فهي تصرفات جمال السفاح ومظالمه التي ربعت لها دنيا العرب، وجزعت، فعجلت في إضرام ثورة لا تبقى ولا تذر، حتى قبل أن تعد معداتها وتهيء أسبابها، بل وقبل أن يأتى أوانها؛ مما أثر في تطورها وحال بين العرب وبين اجتناء الثمرات التي كانوا يرجون اجتناءها في ختام جهادهم الأكبر، كما كانت سبباً في تنفير الرأى العام المتمدن من الاتحاديين الترك واحتقاره لحكومتهم

وكيف لا يجزع العالم العربي لتلك المظالم التي أقدم عليها جمال السفاح، وتلك الفظائع التي ارتكبها رجل الظلم والإرهاب من شنق أحرار العرب والتنكيل بأسرهم والتقليل من أمجادهم، مما لم يعرف التاريخ في صفحاته له مثيلاً؛ وكذلك كان لبعض رجال العرب من الذين أفلتوا من قبضة الظلم والإرهاق فلجأوا إلى مصر والعراق والحجاز، يد كبيرة في إثارة « الرأى العام العربي » على الترك، وتنفيره منهم، وتفهيمه « القضية العربية » على وجهها الصحيح، وفي إعداده للثورة الكبرى والنضبة المضرية العظمى طلباً للثأر والانتقام، كما بكى شعراء العرب وكتابهم في مصر والعراق والحجاز وأمريكا الشهداء الأبرار، مستنزلين سخط العالم المتمدن على الطغاة الظالمين

ويجب علينا هنا قبل الحديث عن وقائع الثورة وحوادثها أيضاً درس العلاقات التي كانت قائمة بين زعيم الثورة شريف مكة، وبين الاتحاديين الترك قبل الحرب الماضية، فإن هذا الشريف لم يبق في استطاعته أن يتجنب الاصطدام بالترك، وأن يحجم عن مصارحتهم الشر والعدوان بعد ما وصلت الحالة في بلاد العرب إلى الدرجة القصوى من الانحطاط والعدوان، رغم اصطناع المودة بينهما، وقد ظل كل فريق يبديها للفريق الآخر حتى اللحظة الأخيرة لظهور نيات الترك واضحة جلية إزاء « الحسين » شريف مكة، وإزاء أولاده أولاً، وإزاء قومه العرب ثانياً، وما كان هؤلاء يضمرون شراً للدولة العثمانية؛ وما كانوا – علم الله – يتمنون زوالها أو الخروج عن طاعتها لولا أنها بادأتهم الشر

والواقع أنه كانت هناك جملة عوامل بعضها شخصى، وبعضها قوى، وبعضها دينى ترغم « الحسين » على التفكير فيما فكر فيه قبله عزيز مصر الخالد « محمد على الكبير » في العمل على وحدة العرب، وضم شملهم، ولم شعثهم، وتأسيس دولة